التفكيرُ الدلاليُّ عند اللغويين العرب المُحدَثين

– الأُصول والاتجاهات –

أُطروحةٌ تقدَّم بها

خالد خليل هادي

إلى مجلس كلية الآداب – الجامعة المستنصرية
وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها/ لغة

بإشراف الأُستاذة الدكتورة

لطيفة عبد الرسول

ذو الحجة ١٤٣١هـ كانون الأول ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّد المرسلين محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرِّ المنتجبين.

أما بعد،

فقد خطا البحثُ اللسانيُّ في البلادِ العربيةِ خطواتٍ مهمة، بدأت بواكيرُها منذ خمسينيَّات القرن الماضي، وتحديدا بعد عودة الموفدين المصريين من الجامعات الأوروبيَّة، حيث درسوا هناك مناهجَ التفكيرِ اللسانيِّ الحديثة، وشرعوا بعد عودتهم بنشر بحوثهم اللسانية التي غطَّت جميع مستويات الدرس اللساني (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية).

لقد كان النشاطُ اللسانيُّ العربيُّ من الكثرةِ والتنوُّعِ ما احتاج معه الى أبحاثٍ ودراساتٍ تقف على حدود هذا النشاط بالدراسة والتمحيص؛ بغية أرخنته، والكشف عن الأُصول المعرفية التي انطلق منها، وبيان الاتجاهات التي سلكها.

وظهرت في ثمانينيات القرن الماضي دراساتٌ أكاديميَّةٌ سعت إلى مراجعة الدرس اللسانيِّ العربيِّ والتأريخ له، وبيان القيمة النظرية والمنهجية للكتابة اللسانية العربية الحديثة، وقد دشَّن هذا المشروعَ الباحثُ حلمي خليل في كتابه" العربية وعلم اللغة البنيويّ"، الذي سلَّط فيه الضوءَ على جهود الوصفيين العرب اللسانية، و ظهرت بعد ذلك أبحاثٌ أكثرُ سعةً وعمقًا وأصالة، سطَّرها الباحثون المغاربة، وهم كلٌّ من "عز الدين مجدوب" في كتابه" المنوال النحوي العربي– قراءة لسانية جديدة"، والباحث مصطفى غلفان في عددٍ من المؤلَّفات، لعلَّ أهمَّها كتابه"اللسانيات العربية الحديثة– دراسة نقدية في المصادر والأُسس النظرية والمنهجية"، والباحث حافظ اسماعيلي علوي في كتابه" اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة– دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقِّي وإشكالاته"، فضلا عن دراساتٍ أُخرى تسيرُ في هذا الاتجاه.

وتندرجُ هذه الدراسةُ ضمن هذا المشروع العامّ، لكنَّها تختلف في أنَّها تتخذُ موضوعًا محدداً من الموضوعات التي تناولها اللسانيون العرب على اختلاف مدارسهم اللسانية، ذلك هو مستوى الدلالة؛ إذ سعت إلى متابعة نظرة اللسانيين العرب لهذا المستوى، ومحاولة الوقوف على الأُسس التي انطلقوا منها والاتجاهات التي سلكوها.

لقد سادت عند مُؤرِّخي الدرس اللسانيِّ المعاصر فكرةٌ ترى أنَّ النتاج اللساني يندرج في مجمله في اطار اتجاهين لسانيين اثنين: اتجاه وصفيّ، واتجاه تفسيريّ، يتجاوز أصحابُه الوصفَ الى التفسير وبيان الأسباب التي من أجلها جاءت الظواهر على ماهي عليه*، ويمثِّل هذين الاتجاهين، التيارُ الوصفيُّ من جهة، والتيارُ التوليديُّ والوظيفيُّ من جهةٍ أُخرى، إذ يقتصر نشاطُ التيار الأول في أغلب الأحوال على جمع المعطيات اللغوية، ومحاولة وصفها وتصنيفها في مختلف المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية)، في حين يتجاوز التيارُ الثاني الوصفَ الصرف للظواهر اللغوية إلى تفسيرها.

ووظَّف الباحثُ هذا التقسيمَ في ترتيب فصول الدراسة، التي جاءت في بابين، عالج الأول"الدلالة في اللسانيات الوصفية"، في حين درس الثاني" الدلالة في اللسانيات التفسيرية"، ويسبقُ هذين البابين تمهيدٌ، تُكلِّم فيه على القضايا النظرية المتعلِّقة بـ"علم الدلالة"، من حيثُ النشأةُ والمفهومُ، والمصطلحُ، ومركزية علم الدلالة بالنسبة إلى مستويات الدرس اللسانيّ الأُخرى، والفرق بينه وبين التداولية.

أمَّا البابُ الأولُ الذي وُسِمَ بـ" الدلالة في اللسانيات الوصفية"، فقد جاء في فصلين: عُنِيَ الأولُ منهما بالوقوف على رؤية الوصفيين الغربيين للجانب الدلاليّ من اللغة، وذلك في مبحثين، خُصِّص الأولُ منهما لـ(الوصفية البنيوية)، ووقفنا فيه على آراء " دي سوسير، وبلومفيلد"، في حين اهتمَّ الثاني بـ(الوصفية الوظيفية)، وعرضنا فيه آراء "فيرث".

---

* إنَّ هذا التقسيم لاينفي وجود تقسيمات أُخرى للدرس اللساني المعاصر، وهو ماسيتضح لنا في فصول الدراسة، ينظر: اللسانيات الوظيفية-مدخل نظري ١٠، ومدخل لفهم اللسانيات ٦٣-٦٥.

وجُعِلَ الفصل الثاني للحديث عن"الدلالة في اللسانيات الوصفية العربية"، وصِيغَ ذلك في اطار ثلاثة مباحث، قُصِرَ الأولُ منها للوقوف على بواكير نشأة الدرس اللسانيّ العربيّ، وخُصِّصَ الثاني للكلام على الدراسات الدلالية الوصفية التي نحت منحى تمهيديا، في اطار مايعرف بـ" اللسانيات التمهيدية"، وهو لونٌ من الكتابة اللسانية، يعمد إلى تقديم المعرفة اللسانية بصورةٍ ميسَّرة للقارئ العربيّ، سواء أكان هذا القارئ مبتدئا يلجُ عالمَ التخصُّص، أم قارئا يسعى إلى التسلُّح باللسانيات للإفادة منها في مجالاتٍ معرفيةٍ أُخرى، وقد اتَّضح لنا أنَّ الغاية التعليمية هي الموجِّهةُ لهذا النوع من الكتابة. أمَّا المبحث الثالث، فقد جُعِلَ خالصا لدراسة نظرية المعنى عند الباحث"تمَّام حسَّان"، كُشِفَ فيه عن أُصول هذه النظرية، وكيف أنَّ جهود تمام حسان اللسانية تُمثِّل مرحلةً توفيقيةً بين الوصفية والوظيفية، موضِّحين التحوُّلات اللسانية التي طرأت على أفكاره، ولاسيَّما في معالجته الجانبَ الدلاليَّ من اللغة.

ودرس البابُ الثاني"الدلالة في اللسانيات التفسيرية"، وذلك في فصلين: وقف الفصلُ الأولُ على" الدلالة في اللسانيات التوليدية"، وقد صِيغَ في مبحثين: عالج الأولُ منهما الأسسَ المعرفيةَ للسانيات التوليدية، وموقف النظرية التوليدية على اختلاف نماذجها من"الدلالة"، في حين وقف الثاني على الدلالة في الدراسات التوليدية العربية، وخصَّصناه لدراسة الجهود الدلالية لكلٍّ من الباحثين"عبد القادر الفاسيّ الفهريّ، ومحمد غاليم، ومازن الوعر".

أمَّا الفصلُ الثاني، فجعلناه لدراسة الدلالة في اللسانيات الوظيفية، وقد انتظم هذا الفصل في مبحثين، بيَّنا في المبحث الأول المبادئ النظرية والمنهجية التي قامت عليها اللسانياتُ الوظيفية، وركَّزنا في المبحث الثاني على تلقِّي اللسانيات الوظيفية في الثقافة العربية، مسلِّطين الضوء على جهود الباحث أحمد المتوكل الدلالية؛ لأنَّ مُنجزَه خيرُ من يمثِّلُ هذا التوجُّه اللساني، فكشفنا عن اسهاماته وأثرها في إغناء اللسانيات الوظيفية. وذيَّلنا الدراسةَ بخاتمةٍ تضمَّنت أهمَ النتائج التي انتهينا اليها.

لقد سلك الباحثُ في هذه الدراسة منهجا يقوم على ركيزتين أساسيتين اثنتين هما:

١-انَّ المنهج الذي اتَّبعناه في أبواب هذه الدراسة وفصولها يقوم على العرض والوصف والتحليل، ولم يكن من وكدنا تقديم نقدٍ تفصيلي لما كتبه الدلاليون العرب المحدثون في اطار المناهج التي ارتضوها، غير أنَّ ذلك لم يحل دون توجيه نقدٍ لكتاباتهم الدلالية في عددٍ من المواضع.
٢-انَّ الباحث لم يتبنَ مقولاتِ نظريةٍ لسانيةٍ معينة، يقرأ في ضوئها نتاجات الدلاليين العرب على اختلاف مدارسهم، بل تجاوز كلَّ رؤية مذهبية في دراسته، ويبدو أنَّ هذه النقطة نتيجةٌ طبيعيةٌ للأولى.

ومما يجدرُ ذكرُه هنا أنَّ إنجاز هذه الدراسة لم يخلُ من بعض الصعوبات التي اعترضت سبيل الباحث، تقف في مقدمتها ندرةُ المصادر وصعوبةُ الحصول عليها، غير أنَّه- وبفضلٍ من الله- تُجُووزت هذه الصعوبة، بعد حصول الباحث على بعثةٍ بحثيةٍ، أمدُها ثلاثةُ أشهر، قضَّاها في رحاب كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، في المغرب، إذ تسنَّى له لقاء جمعٍ طيِّبٍ ومهمٍ وكريمٍ من الباحثين المغاربة، والإفادة من إرشاداتهم، وحضور عددٍ من الندوات والمؤتمرات العلمية العالمية، التي تنظِّمها الجامعات، وقد مكَّنت هذه البعثةُ الباحثَ من الحصول على عددٍ من المؤلَّفات المهمَّة التي شكَّلت عمادَ هذه الدراسة، وتحديدا في بابها الثاني.

ومما قد يُلاحظ على فصول هذه الدراسة أنَّ النماذج المُمثِّلة لبعض اتجاهاتها انحصرت في جهود عددٍ من اللسانيين العرب دون سواهم، ولم يكن ذلك انتقائيا أو كيفيا، وإنَّما كان لضروراتٍ علمية، يقف في مقدمتها أنَّها نماذجُ لسانيةٌ فرضت نفسها عن جدارة، من خلال تبنيها نظريةً لسانيةً محدَّدة، درست الدلالة في ضوئها، أمَّا المحاولات الدلالية التي لم تكن لها رؤيةٌ منهجيةٌ واضحةٌ ومحدَّدةٌ في معالجة قضايا الدلالة ومسائلها فقد استبعدناها ولم نقف عليها، لغياب الاطار النظري الذي تشتغل على هديه، وتقرأ الدلالة في ضوئه.

وفي الختام، لابدَّ من كلمة شكرٍ وعرفانٍ أُزجيها بحقِّ أُستاذتي المشرفة الدكتورة لطيفة عبد الرسول، التي رعتِ الدراسة، وتابعتها بالمناقشةِ والسؤال وإسداء النصح، فلها منِّي كلُّ الودِّ والتقدير، وأشكرُ أُستاذيَ وأُستاذَ جيلٍ عريضٍ من المشتغلين بالدرس اللغويّ الدكتور صاحب جعفر أبو جناح، الذي بثَّ في نفسي عزيمةً وتشجيعا، كان لهما أثرٌ كبيرٌ في إنجازِ هذا العمل، فله منِّي كلُّ الاحترام والمحبة، والشكر موصول إلى كلِّ من ساعدني على إتمام هذا العمل، وأخصُّ بالذكر الباحثين المغاربة، وهم كلٌّ من الدكتور محمد الظريف، رئيس شعبة اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، والدكتور محمد الأوراغي، والدكتور محمد غاليم، والدكتور محمد بلبول، والدكتور محمد خطَّابي، الذين لمستُ فيهم علما كبيرا وتواضُعا أكبر، وأتوجَّه بشكري العميق والخاصِّ إلى الأساتذة، الدكتور ضرغام محمود الخفَّاف، والدكتور تحسين الوزان، والدكتور فائز الشرع، والدكتور مؤيد آل صوينت، والأُستاذ محمود حمد سماري، والصديق مهنَّد رحيم جاسم، أشكر لهم جميعهم الأجواء العلميَّة، والمناقشات الثرَّة التي كانت ومازالت تجمعنا، ولا أنسى شكر الإنسانة الرائعة التي وقفت إلى جواري مساندةً ومحفِّزةً، سكن الروح زوجتي العزيزة.

والله من وراء القصد

الباحث